الحرب والقتال

من خطبة الاستاذ داود ستارجوردان الاميركي القاها بالالمانية في مدينة برلين في ٧ اغسطس الماضي

مرادي الحث على السلم بالشكوى من الحرب وموضوعي كلام صفوقليس[1] الذي قال « ان الحرب تهلك الاخيار لا الاشرار » . وبحثي فيه بيولوجي[2] وصادح الكلام على منفعة القوانين والشرائع والتحكيم في منع الحروب للذين هم اطول مني باعاً في هذه المواضيع وادع ايضاً الكلام على علاقة الحرب بالدين والاجتماع واترك وصف ويلاتها وما تبقيه الذين يلظون بنارها من الالم الدائم والحزن المقيم . ولا التفت الى نفقاتها ولو كانت حملاً ثقيلاً على ظهور الصناع والعمال ولا الى معداتها التي يتحمل نفقتها الناس كل سنة في ميزانيات حكوماتهم لانها وان هذه النفقات است من مقومات الامم ولوازمها . ولا التفت الى سلطة المرابين الذين يقرضون الدول الاموال وسلطتهم تزيد يوماً فيوماً حتى كاد العالم يصير ملكاً لهم وطوعاً لامرهم وهم الذين يثيرون الحروب وهم الذين يخمدون نارها

مرادي محصور في علاقة الحرب بالرجال وتأثيرها في نوع الانسان

قال بنيامين فرنكلين[3] « ان تنظيم الجنود وابقاءها للحرب نتيجة لابد من ان تدعو اخيراً الى ابطال الحروب لان الجنود المنظمة تقلل عدد السكان وتضعف نوع الانسان باخذها زهرة شبان الامة اقوى رجالها وانشطهم ومنعهم من الزواج واخلاف النسل »

وما يصدق على الجنود المنظمة يصدق بنوع اخص على الجنود الذين يحاربون ويقتلون فان الامة تتقدم وتتفوق نسلهم الى الابد . وخسائر الحروب هي ما نوفيه بعد الحروب

لقد تقدم علم البيولوجيا اي علم الاحياء تقدماً كبيراً في الثلاثين سنة الاخيرة ومن مواضيعه التي حققها العلماء علاقة الوراثة بارتقاء نوع الانسان وانواع الحيوان . فقد عُرف منها ان جودة النسل تتوقف على جودة الاصل ومستقبل الامم يتوقف على الذين يعيشون من ابنائها ويخلفون نسلاً لا على الذين يقتلون او يذهبون بلا عقب . واصلاح النوع يتوقف على اختيار الاصل الصالح لا على اخلاف النسل الصالح والضد بالضد هذا الحكم صدق على الناس في العصور الغابرة وهو يصدق عليهم الآن وفي مستقبل الازمان وهو الناموس الذي نجري عليه في

(١) صفوقليس شاعر يوناني توفي قبل المسيح باربعمئة وخمس سنوات (٢) نسبة الى البيولوجيا اي علم الاحياء (٣) عالم اميركي مشهور .

تأصيل المواشي واصلاح انواعها باختيار اصلحها لاختلاف النسل . فالصفات التي يمتاز بها الجندي الباسل وهي القوة والخفة والشجاعة والحزم والاقدام وحب الوطن هي الصفات التي تفقدها الامة بجعلها رجالها جنوداً ومنعهم من التزوج . وقد زعم البعض ان الحروب تزيد الامة نشاطاً واقداماً ولكن هذا الزعم فاسد لان الامة لا تقوم بالذين يصلحون للتجند فيتجندون ويُقتَلون بل بالذين لا يصلحون لهُ فيعيشون ويتوالدون

كان في جبال ايطاليا في قديم الزمان قوم اشداء بواسل اباة الضيم ذوو عزم وحزم لا يعزّ عليهم مطلب

قوم اذا الشرُّ ابدى ناجذَيهِ لهم طاروا اليهِ زرافاتٍ ووحدانا

كانوا يعيشون بحرث الارض ولكنهم يحبون انفسهم اعلاً لكل عمل . اصلٌ طيب وفرع طيب وبيئة الذي كان يسودهم — استغفرالله لم يكن هم ملك لان الاحرار لا يملكون قيادهم لاحد بل كلٌّ منهم ملك على نفسهِ وكلهم خاضع لسلطان الحريَّة — الحريَّة باعوانها الاربعة التي تنشئُ الامم اي التنوُّع الذي لا يطمع عملهُ والوراثة التي تحتفظ بما يتنوَّع والفصل الذي منع امتزاج اولئك الاقوام بغيرهم والانتخاب الذي اختار الاصلح من الرجال والنساء وطرح النفاية والنفاضة . فقام الرجال على اعمالهم يحرثون الارض ويبنون المدن وينزحون المستنقعات ويسنّون الشرائع والقوانين وولد لهم اولاد مثلهم همّةً ونشاطاً وروح الحرية تسومهم وتتولّى قيادهم . وتلك الايام الغابرة حينما كان الرومان رجالاً وكانت رومية صغيرة لا مجد لها ولا غنىً ولا مستعمرات ولا عبيد في ايام عظمة رومية والرومان

ثم اندحرت روح الحرية امام روح التسلُّط . فان الرومانيين شعروا بما لهم من القوة فارادوا استعمال قوتهم فاتحدوا واعتدوا وغزوا ونهبوا وافتخروا وتعظموا اي خاضوا غمار الحروب من اولها الى ان عقد لواء النصر للغالب فيها فضاعت حرية العامّة في غطرسة الخاصة وضاع الاستقلال في بحر المطامع وصار لحب الوطن معنىً غير معناهُ الحقيقي وتُقل من البيت والمنزل الى ساحة الوغى

ولا يهمنا الآن ان نتتبَّع تاريخ رومية فنحصر كلامنا في امر واحد وهو ترك الانتخاب الجنسي لاختلاف النسل فان حروب الرومان كانت تطلب افضل رجالهم فكانت النتيجة ان الاشداء الذين عليهم المعوّل ذهبوا الى الحروب والمغازي فحلت منهم البيوت والحقول والمعامل وبقي فيها الضعفاء والسقماء اي ذهب اولاد الرجال وبقي اولاد العبيد والخدم والغوغاء الذين لا تتألف الجيوش منهم

فانحطاط رومية لم ينتج من البذخ والترف وفساد الآداب ولا من نظام نيرون وكاليغولا[1] ولا من ضعف خلفاء قسطنطين بل نشأ في فيلبين حينما تغلّب ملاك السلطة على ملاك الحرية بل نشأ قبل ذلك لما قام القناصل والحكام وقصد الرجال الذين لا يخضعون لسلطة حاكم. ذهب الرجال الى أقاصي البلدان جنوداً ولم يعودوا منها وبقيت رومية حية ترزق ولكنها لم تبقَ كما كانت بل صار اعلها من نسل الذين تركوا فيها لضعفهم. ولذلك تكرّر قيام النوغاء فيها وتنصيبهم للملوك صناتهم فصار حكم البلاد ملكياً استبدادياً لا لوجود الملوك فيها بل لعدم وجود رجال فيها. وكثيراً جُعل الواحد امبراطوراً وهو طفل في المهد ولو اقاموا خشبة جعلوها امبراطوراً لقامت مقامهُ. فلا سبب لانحطاط الامة الاّ انحطاط آبائها كما ان انحطاط القطعان ناتج من انحطاط الكباش فان الانسان والحيوان خاضعان لناموس واحد من هذا القبيل وشيوع الحكم الاستبدادي دليل انحطاط الامم. فان الرعاع الذين كانوا ينصبون قياصرة الرومان كانوا يعبدونهم ايضاً

ما قول المؤرخين في هذه الحقائق ومَن منهم عرف مغزى الاخبار التي ذكرها ونظر الى الانسان كاحد الاحياء والى الامة كمجموع منها تقوم صفاتها بصفات الاحياء التي تتألف منها. يقال ان عنصر قسطنطين كان اغلظ من عنصري اغسطس اي انهُ كان اشد استبداداً برعاياهُ من اغسطس قيصر وما ذلك الاّ لانهم زادوا ضعفاً فزاد قوة

وقد ادرك بعض المؤرخين هذه الحقيقة قال المؤرخ سبلي ان الامبراطورية الرومانية تلاشت لقلة الرجال. وقد اعطيت الجوائز للذين يتزوجون ويخلفون النسل ولكن الحروب كانت تستنزف كل اولاد الاحرار. ولما قلّ اباة الضيم زاد الحكام غطرسةً واستبداداً. وشرُّ الحكومات حكومة يعبد رعاياها راعيها. فصار الملك يجندهم واعوانهُ آلة في الاستبداد لا يصغي لقيل ولا يسأ بحجة. ومَن يتول ومن يحتج والناس من ابناء العبيد والرعاع لا وطن لم يتشبثون اليهِ ولا حقيقة يذودون عنها. وصار الكتّاب اذا كتبوا احتقروا الصنائع والصنّاع ولم يجدوا الاّ رجال السيف. ولما لم يعد في البلاد رجال لحرث الارض جعلت رومية تستعير العمال من غيرها جماعات فاستحكم الضعف منها حتى غلبها البرابرة على امرها. وقد حسب الدكتور ميك المؤرخ انهُ قتل ثمانون الفاً من كل مئة الف من الاحرار وفجا خمسة وتسعون الفاً من كل مئة الف من العبيد ومفاد ذلك في علم البيولوجيا لا يخفى على احد

(١) امبراطوران مشهوران بظلمها وفظاعتهما

واستشهد الخطيب بكثير من اقوال الدكتور سيك ثم قال ان التاريخ يعيد نفسه اي ان حوادث الدهر تتكرر اذا تكررت اسبابها فما حل برومية حل باسبانيا وفرنسا . واوجز الكلام على اسبانيا ولكنه اسهب في الكلام على فرنسا قال يقال ان في بروكسل صورة من زمن واقعة وترلو تمثل نبوليون نازلاً الى عالم الارواح وامامه صف لا يحصى من الرجال الذين ساقهم اليه قبله ثلاثة ملايين وسبعون الفاً واكثر من نصفهم من الفرنسويين ووراءهم اشارات الى الملايين الكثيرة التي فقدها العالم بفقدهم . اولئك الرجال نخبة الامم من رجال نبوليون ومن الذين حاربهم نبوليون وجعلهم طعمة للبنادق والمدافع من الفلاحين والصناع والمعلمين من ابن ثماني عشرة سنة الى ابن خمس وثلاثين . هذا كان سنهم في الاول ثم صار يأخذ الاصغر والاكبر وعنده ان الطفل يوقف الرصاصة كالكهل . قال الدكتور سيك ان نبوليون اخذ كل طوال القامة وبشرهم في ميادين القتال ولذلك امست الامة الفرنسوية من الامم القصيرة القامة . وقال له غير ان الفرنسويين لا يسترجعون ما كانوا يوصفون به قبل عهد الامبراطورية الاولى من طول القامة الا بعد سنين كثيرة يدوم فيها السلم والخصب

ابتدأ عهد نبوليون ابتداء مجيداً بقانونه وبسالته الفائقة ومهارته في فنون الحرب فاستحق المدح والاكرام من امته ولكن انقلبت شهامته الى عنفوان وسبيل المجد كثير المزالق فتتابعت المعارك والغارات على الاعداء فالمسالمين فالاصدقاء وزحفت جنوده على ايطاليا فمصر فسوريا فالنمسا واجتازت المانيا الى روسيا . وتوالت تعبئة الجيوش بعد الظفر والظفر بعد التعبئة فقتل الاقوياء وبقي الضعفاء لاخلاف النسل وصار التفصل الاول امبراطوراً وأصبح خادم الامة عاملها . ولم تنقطع تعبئة الجنود وهو يقول ليموتوا وسلاحهم في أيديهم فان ذلك هو المجد وأنا آخذ بثارهم واذا مات منا جندي قام جندي

شن الغارة على موسكو بستمئة الف فلم يرجع منهم الا عشرون الفاً رجعوا وقد هرأم البرد وعضهم الجوع وصاروا اشباحاً تحمل الارواح اما هو فلم يخفض سؤرة عنفوانه فعزم على غزو المانيا وخضد شوكتها وعبأ جيشاً كالاول ولكن اكثره كان شباناً غير مدربين على حمل السلاح فكانت النتيجة ان المزايا التي كان يمتاز بها الجندي فقدتها الامة بفقد رجالها وتُركت فرنسا جريحة مأوفة . ولم تظهر آثار جروحها في العلوم والفنون لان رجال العلوم ورجال الفنون قلما يذهبون الى الحروب . واذا قطعت جذر شجرة لم يظهر الضعف حالاً في أوراقها وأثمارها ولكن لا بد من ظهوره عاجلاً او آجلاً وآثار الحروب تظهر في مستقبل الامم

ولقد استغرب البعض نهوض اليابان في هذه السنين الاخيرة وتفوقها في ميادين القتال

وفوزها على الصينيين والروس مع انهُ مرَّ عليها مئات سنة وهي راقدة في بحبوحة الامن والسلام. وفاتهم ان امنها وسلامها هما اللذان حفظا رجالها واغنيا نسلهم. واذا غا الاقوياء لم يتمّ معهم الضعفاء لان ناموس بقاء الاصلح يقرض هؤلاء من امام اولئك. وما احسن ما قالهُ احد اليابانيين وهو « ان الذين انتصروا في يالو وكوريا ومنشوريا هم ارواح اسلافنا الذين كانوا يشدون ايدينا ويبضون في عروقنا واذا خشتَ الياباني وجدتهُ سموريًّا (رجل حرب) ولو كان في مقدمة ابناء العصر »

واذا استمرَّت اليابان مئتي سنة اخرى مشتبكة في الحروب وبقي فيها رجال حرب كما فيها الآن فيكون ذلك من عجائب الدهر بل نعمة لم تنلها امَّة من الامم. نعم ان الامم الحربية تكثر من ذكر الحروب في اقوالها واشعارها ولكن ذكر الحروب شيء وقيام الرجال المقاتلين على الفوز فيها شيء آخر

وختم الخطيب خطبتهُ بالاشارة الى رجال الانكليز الذين يقاتلون في البلدان المتاخمة فتتقدم الامة وتتقد نسلهم ولكنهُ قال ان الامة الانكليزية لم تضعف كثيراً بتقدم ابنائها بالسنة الى سائر ابنائها ولان فيها وسائل اخرى تزيل الضعف او تخفيهِ. انتهى

ويظهر لنا ان ما قالهُ عن الامة الرومانية والامة الفرنسوية يصدق على كل الامم الغابرة ولاسيما على الامة العربية التي استحرَّ فيها القتل قبل الاسلام وبعدهُ ولعلهُ السبب الاكبر لما حلَّ بمالك العرب من الضعف والوهن. وقد انتبه العرب لذلك حتى في جاهليتهم قال سعد بن مالك جد طرفة بن العبد

بشس الخلائف بعدنا اولاد يشكر والقنا
كيف الحياة اذا خلت منا الظواهر والبطاح
اين الاعزة والاسنَّة عند ذلك والسماح

اي اذا قتل كرام القوم فسدت الخلائف بعدهم وزال من القبيلة اعزتها ورجال الحرب والسماح فيها. فعسى ان يسمع صوت الخطيب كل الذين في يدهم لياد الامم ومستقبلها فيبادروا الى ابطال الحروب والتجنيد لها قبلما يضطرون الى ذلك اضطراراً بقلة الرجال الصالحين للقتال

ولكن الظواهر تدلُّ على انهم لا يفعلون شيئاً الاَّ مضطرين وقد لا يمهلهم الاشتراكيون الى ان يقل الرجال الصالحون للقتال بل يضطرونهم الى ابطال التجنيد بنشر المبادىء الاشتراكية ومنع الاغنياء من الكسب بالحروب وبالاستعداد لها.